المجلة الدولية للإتصال الإجتماعي
جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم
ISSN: 2437 – 1181
EISSN: 2710-8139

المجلد 10 / العدد: 02 (2023)، ص387 –ص400

الواقع الإجتماعي في تفاعلات المراهق على الإنستغرام بين الإنعزال والإنكفاء الشبكي

Social reality in adolescent interactions on Instagram between isolation and network regression

نوال يوسفي* [1] ، بوشاقور جمال[2]

[1] مخبر البحث وسائل الإعلام والإستخدامات ، المدرسة الوطنية العليا لعلوم الإعلام والصحافة (الجزائر)، yousfi.nawel@ensjsi.dz

[2] المدرسة الوطنية العليا لعلوم الإعلام والصحافة (الجزائر)، khouloud.albekri-abdalkader@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2022/10/11 تاريخ القبول: 2022/12/20 تاريخ النشر: 2023/07/01

DOI: 10.53284/2120-010-002-026

الملخص:

تهدف هذه الدراسة لتحليل أبعاد التفاعل الإفتراضي للمراهق من خلال الانستغرام والكشف عن ملامح الواقع الإجتماعي في تفاعلاته، و معرفة دور الانستغرام كأحد قنوات التواصل الإجتماعي في تعزيز علاقة المراهق بواقعه الحقيقي أو انفصاله عنه ،وفي ثنايا التحليل ركزت الدراسة على إبراز أهم المعالم التي ترتبط بالبيئة الرقمية من خلال الصورة وتأثيرها على تمثلات المراهق لذاته ولفهم أبعاد ذلك اعتمدت الدراسة على الجانب النظري للتعرف أولا على خصوصية الإنستغرام وثانيا تحليل أسرار انجذاب المراهق له من زاوية نفسية سوسيولوجية–اتصالية.

الكلمات المفتاحية: واقع اجتماعي ؛مراهق؛ تفاعلات؛ انستغرام ؛انعزال

Abstract :
This study aims to analyze the dimensions of the adolescent's virtual interaction through Instagram, and to reveal the features of social reality in the forms of its interactions and to know the role of Instagram as one of the social media channels in strengthening the adolescent's relationship with their exact reality or their separation from its.
In the folds of the analysis, the study focused on highlighting the most important features that are related to the digital environment through the image and its impact on the adolescent's representations of themselves. To understand the dimensions that study, relied on the theoretical side to identify the privacy of Instagram first, and second to analyze the secrets of the adolescent's attraction to wards it from psychological and sociological angles.

Keywords: social reality; adolescent; interactions; Instagram; isolation

* **المؤلف المرسل**

مقدمة:

لم يعد التحول الرقمي الذي فرضته التقنية الحديثة أحد الخيارات التي بأيدينا اليوم، في عالم أصبحت تحكمه المتغيرات المتسارعة في مجال الإتصال وتقنية المعلومات، ذلك أن منتجات تكنولوجيا الإتصالات جعلتنا في تحد هام إما مواكبة عصر المعلومات أو الإنعزال عن بقية دول العالم، وأمام استحالة الخيار الثاني بالتأكيد بالنظر لما يشهده العالم من تطورات يدفعنا الأمر بقبول هذه المستحدثات والتكيف معها والإستفادة منها.

ولقد أضفت المتغيرات الحاصلة شكلا افتراضيا لوجودنا الرقمي الذي لم يكن مبرمجا قبل أن تظهر شبكات التواصل الإجتماعي وتقتحم عالمنا الخاص وخصوصياته وتأسر تفاعلاتنا في ثنائية الآلة والشبكة، خاصة بعد التطور غير المسبوق الذي عرفته هذه الشبكات في الآونة الأخيرة، أين عززت الأنترنيت انتشارها إلى حد الإدمان الذي أثر كثيرا في تفاصيل الحياة الإجتماعية بكل أبعادها.

فالروابط التي تنسجها الشبكات الإجتماعية بقدر ما تختزل المسافات وتكسر الحواجز الجغرافية وتقرب الرؤى والافكار الا أنها لا تعدو أن تكون وهمية لا علاقة لها بالهوية الفعلية وذلك بإسقاط التفاعل الحضوري المكاني، وهو ما يحيلنا للتفكير أكثر في المعالم الجديدة للروابط الإجتماعية التي ساهمت تفاعلات الشبكات الإجتماعية في إعادة صياغتها .

ومع ظهور المنصات الاجتماعية التي تختلف من حيث أهدافها وخصوصيتها احتدم التنافس بينها لجذب أكبر قدر من المستخدمين وبلوغ الريادة في الفضاء الرقمي، لعل أبرزها الإنستغرام الذي يعد من أشهر منصات التواصل الإجتماعي لجميع الأعمار والمواقع والعلامات التجارية بل الشبكة الأسرع نموا من حيث عدد المستخدمين مؤخرا ، وحسب تحليل المختصين في هذا المجال فإن الإنستغرام تم تصنيفه ثاني أكبر الشبكات تفاعلا بعد الفايسبوك، ذلك أن الإنستغرام يلعب على وتر الثقافة البصرية التي تميز العصر الحالي حيث ترتبط الصورة ارتباطا وثيقا بمعرض أنماط الحياة .وهو المجال الذي يرسم تشكيلة الفضاء الرقمي وأشكاله التواصلية والتي يوقعها الشباب والمراهقين خاصة من خلال تفاعلاتهم الإفتراضية.

وفيما تتجاذب الافكار والأبحاث حول ما إذا كان تفاعل المراهقين عبر الفضاء الإفتراضي يتم بهوية حقيقية أم وهمية، فإننا نتجاوز في طرحنا هذا الجدل القائم لنبحث في علاقة "المراهق " بواقعه الإجتماعي من خلال تفاعلاته على الإنستغرام كما يأتي طرح الإشكالية على النحو التالي :

ما التفاعلات التي يعكسها المراهق عن واقعه الاجتماعي على الانستغرام؟

ولتفكيك هذه الإشكالية والإجابة عن العناصر الأساسية المتضمنة فيها وجب علينا طرح التساؤلات التالية:

_ما نوع المنشورات التي يعرضها المراهق على الإنستغرام؟

_ ما طبيعة تفاعلات المراهق على الإنستغرام ؟

_هل تفاعلات المراهق على الإنستغرام تعكس وعيا بواقعه أم تعزله عنه؟

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في فهم جمهور المستخدمين من المراهقين للانستغرام خاصة في غياب دراسات وأبحاث مخبرية وأكاديمية جزائرية وحتى عربية حول هذه الشبكة ومميزاتها، ومعرفة تأثير الإنستغرام على الحياة الإجتماعية للمراهق وابراز تفاعلاته ، ومن خلال ذلك نتعرف على خصوصية الإنستغرام مقارنة بالشبكات الأخرى .

بداية الوجود لشبكات التواصل الإجتماعي إنما كان في الأصل تسهيل الربط والمساعدة على التعارف بين مستخدميها

أينما كانوا الربط بين زملاء الدراسة ،وأخرى خدمة للرسائل الخاصة بين الأصدقاء، ومع ظهور منصات اجتماعية أخرى تختلف من حيث الهدف والخصوصية احتدم تنافس شديد بينها لجذب أكبر قدر من المستخدمين وبلوغ الريادة في الفضاء الرقمي ،لعل أبرزها الإنستغرام الذي يعد من أشهر منصات التواصل الإجتماعي لجميع الأعمار والمواقع والعلامات التجارية، وحسب تحليل المختصين في هذا المجال فإن الإنستغرام تم تصنيفه ثاني أكبر الشبكات تفاعلا بعد الفايسبوك ،ذلك أن الإنستغرام يلعب على وتر الثقافة البصرية التي تميز العصر الحالي حيث ترتبط الصورة ارتباطا وثيقا بمعرض أنماط الحياة .

ومنذ ظهور الانستغرام في 2010 وانتعشت محتوياته بأحدث التطبيقات عرف تطورات كثيرة خاصة بعد استحواذ الفايسبوك عليه في أفريل 2012، وقد تطور الإنستغرام بشكل مذهل في وقت قصير جدا صار ينافس الشبكات الرائدة في عالم الصورة كالسنابشات، حيث بلغ عدد المستخدمين في ديسمبر 2010مليون مستخدم ليصل بعد سنة إلى خمسة ملايين مستخدم بزيادة 500% وفي السنة الثالثة تضاعف العدد ليصل 30 مليون مستخدم وخصوصاً مع إطلاق التطبيق لمنصة أندرويد ، ولعل أكثر العوامل التي ساعدت في هذا التطور كونه أول شبكة اجتماعية ظهرت مباشرة بالهاتف النقال، ما سهل على مستخدميه التفاعل مع تطبيقاته بشكل تلقائي تستجيب لخصوصيات الهواتف الذكية وامتيازاتها.

كل هذه المتغيرات الجديدة تؤكد في عالم الإتصال أن الفضاء الإفتراضي أصبح شريكا في خلق مجتمع شبكي مواز ساهم بطريقة أو بأخرى في إعادة منطق التواصل والعلاقات الإجتماعية عبر الفضاء الرقمي. لقد أعادت شبكات التواصل الإجتماعي صياغة الواقع الإنساني منذ أن تزاوجت حيثياته بالتقنيات التي فرضتها تكنولوجيات الإتصال الحديثة وتطبيقات شبكة الأنترنيت، ومع تسارع تطوراتها على الحياة الإجتماعية أفرزت وجود مجتمعات افتراضية رسمت أبعادها وسماتها رقميا بفعل التواصل والتبادل المستمر على هذه الفضاءات وحول مفهوم المجتمع الإفتراضي يقول راينغولد هاورد باعتباره أول من أدرج هذا المصطلح في كتابه "المجتمعات الإفتراضية "هي تجمعات اجتماعية تنشأ من الشبكة حين يستمر أناس بعدد كاف في مناقشاتهم علنيا لوقت كاف من الزمن بمشاعر إنسانية كافية لتشكيل شبكات من العلاقات الشخصية في الفضاء السيبري"، ذلك ما يوحي بالإجماع حول

مفهوم المجتمع الافتراضي الذي يختزل حضور التجمعات الإجتماعية خارج الإطار الجغرافي، تلتقي فيه هويات وجنسيات مختلفة تجمعهم اهتمامات مشتركة وفق آليات متعددة للتواصل فيما بينهم.

الإنستغرام والمراهق

لقد أظهرت البيئة الإتصالية الجديدة اقبالا متزايدا على شبكات التواصل الإجتماعي وخاصة على الإنستغرام من مختلف الشرائح رغم أنه حديث العهد بالمقارنة مع الفايسبوك واليوتيوب وغيرها لكنه في ظرف زمني قصير استطاع أن يدخل سباق التنافس حتى صنف مؤخرا ثاني أكبر شبكة تفاعلية والأسرع نموا بحجم خمسمائة مليون مستخدم في اليوم وتشير الإحصاءات أن نسبة المستخدمين المراهقين للإنستغرام تجاوزت ال 65 بالمئة، ونسبة الإناث فيها أكبر مقارنة بالذكور ،وحسب مركز "بيو" الأمريكي للدراسات المتخصص بالإحصائيات وبتوجهات الشعوب نشر دراسة غطت النصف الأول من عام 2018 وكشفت أنّ موقع "يوتيوب" وتطبيقات "إنستغرام" و"سناب شات" هي أكثر منصات التواصل الاجتماعي شعبية في أوساط المراهقين واليافعين. وأظهرت أن 85 في المائة من المراهقين ينشطون على "يوتيوب" ولهم قنواتهم، بينما ينشط 72 في المائة من المراهقين على "إنستغرام" ويتبادلون رسائلهم وأخبارهم عبره. كما ينشط 69 في المائة من المراهقين على تطبيق "سناب شات ،لكن بالمقابل ما (م.م/ي.أ، 2018) زال فيما يفضل 32 في المائة منهم التغريد عبر "تويتر".51 في المائة من المراهقين يستعملون "فيسبوك"،

في الجزائر كما في العالم، الإنستغرام يسري بنفس العدوى من حيث جنس المستخدمين ومستوى أعمارهم مع فارق واضح في الإستعمال بسبب تأخر انتشاره ووصول تقنياته إلى الجزائر كما هو حال الفايسبوك، وتشير بيانات الرسم التالي طبيعة المستخدمين للإنستغرام مع التركيز على مستويات الأعمار إذ تؤكد هذه المعطيات التفاف المراهقين والشباب بدرجة أكبر حول الإنستغرام وبفارق واضح مقارنة بالأعمار الأخرى.

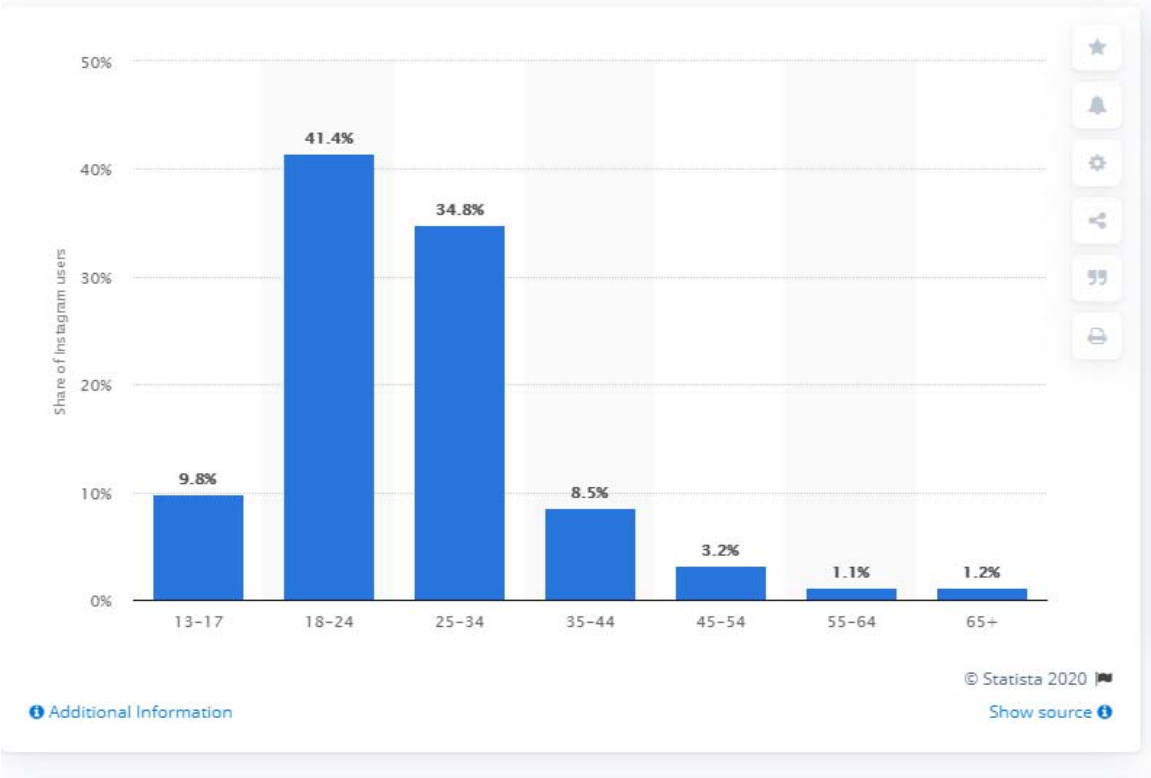

إحصائيات الإنستغرام بالجزائر2020(المصدر: statista 2020)

ومع تطور حجم نمو الإنستغرام في الآونة الأخيرة، أظهرت الأبحاث انجذاب المراهقين بشكل ملفت لشبكة الإنستغرام ونزوح من الفايسبوك مع احتفاظهم بحساباتهم في هذا الأخير، ما جعل الفايسبوك يدمج بطريقة ذكية الإنستغرام بالفايسبوك وفي اتصال دائم وآني بينهما مع المستخدم، من خلال تقنية النشر المشترك أو الموازي بحيث ينتقل بطريقة مرنة إلى حسابه ونشر الصورة أو التعليق في الفايسبوك والإنستغرام بنقرة واحدة فقط .

وحتى نفهم طبيعة العلاقة بين المراهق والإنستغرام علينا البحث في أسباب ادمان المراهق بالانستغرام تحديدا وما الذي تحققه لديه وكيف أثرت عليه في أبعاد كثيرة من حياته. وعلى اعتبار أن الإنستغرام أول شبكة تواصل اجتماعية ولدت على الهاتف المحمول، ذلك ما يحيلنا للنظر في نتائج مركز "بيو" للأبحاث حول علاقة المراهق بالأنستغرام وسبب انجذابهم له مقارنة بالفايسبوك والشبكات الأخرى، وتعتمد النتائج التي توصل إليها المركز على استبيان تم توزيعه على 1058 من أولياء الأمور الذين لديهم أولاد مراهقون تتراوح أعمارهم بين 13 و17 عامًا، إضافة إلى مقابلات تم إجراؤها مع 743 مراهقًا ومراهقة. وقد ذكرت الدراسة إلى أن الملاحظة الأكثر لفتًا للانتباه إضافة إلى تراجع شهرة فيسبوك، هو الانتشار الكاسح للهواتف الذكية بين الشباب المراهقين، حيث يملك 95% من المراهقين في الفئة العمرية المشار إليها هاتفًا محمولًا، و45% أشاروا إلى أنهم "أونلاين" طوال الوقت تقريبًا.

وحسب بعض المتابعين للفضاء الرقمي فإن سر انجذاب المراهق للإنستغرام إنما يعود للامتيازات التي تمنحها للمراهق والتي تتوافق وخصوصية المرحلة العمرية الهامة في تشكيل شخصية المستقبل، ذلك أن اعتماد الانستغرام على الصورة والثقافة المرئية هي وراء اهتمام المراهق بالتقدير الذاتي والبحث عما يلبي احتياجاتهم النفسية وعرض ذواتهم والكشف عنها.

لقد أصبح للمراهقين في الفضاء الرقمي وجودا ملفتا عبر الإنستغرام، لأنها تمنحه مزيدا من الحريات في اكتشاف ذاته و الترويج لها وزيادة الفرص في تعزيز العلاقات الإجتماعية العابرة للفضاء الواقعي فهي مصنفة اليوم كأكبر منصة اجتماعية شهرة والتي تجذب 71 بالمئة من المراهقين الذين تتراوح أعمارهم بين 13و17 عاما حسب مركز "بيو" للأبحاث، ولهذا الإلتفاف مايبرره حسب بعض الدراسات التي أجريت حول المراهقين والإشباعات المحققة من استخداماتهم لشبكات التواصل الإجتماعي التي تعبر عن احتاجاتهم الاساسية قياسا وطبيعة المرحلة العمرية مثل اشباعات التفاعل اشباعات التسلية والترفيه اشباعات قضاء وقت الفراغ، اشباعات التعرف على الأحداث المحيطة بهم اشباعات علمية وتوسيع دائرة العلاقات الإجتماعية والصداقات .

الصورة ... رهان الذات الرقمية والهوية الافتراضية للمراهق

لقد أصبحت الصورة وسيلة بارزة للإتصال عبر الانترنيت وتشكل الصور الشخصية قنوات قوية للتواصل غير لفظي تعمل على الترويج الذاتي، حيث ترتبط ارتباطا وثيقا بمعرض أنماط الحياة وهو وسيلة لحظية مستخلصة من مصطلح "الأنستغرام" المكون من مزيج كلمتين "لحظة" توحي لعنصر الزمن و"غرام" بمعنى برقية من اللقطات، ولهذه الخصوصية يبرر المختصون أسباب انتشاره وسرعة نموه بين الشبكات، ففي 2010بلغ عدد المستخدمين150مليون نشط، وفي2013 بلغت ب 55 مليون صورة يتم تحميلها في اليوم، وفي 2020 أكثر من 50 مليار صورة تمت مشاركتها على الانستغرام وتتيح الانستغرام لمستخدميها اختيارات كثيرة في رسم ملامح الذات من خلال الصورة والفيديو والتحكم في طبيعة الصورة (اليغرين، 2020)ونشرها بالطريقة المناسبة وبتقنيات الفلاتر .

وقد كشفت دراسة أجرت تحليلا كميا ونوعيا محتوى صور وأنواع المستخدم للإنستغرام عن خمسة أنواع من مستخدمي الإنستغرام من حيث نشر الصور، وأن صور الإنستغرام تكون مصنفة تقريبا إلى ثمانية أنواع بناء على محتواها: صور ذاتية أصدقاء، أنشطة، صور توضيحية، الغذاء، الأدوات ، الأزياء، الحيوانات الأليفة والستة الأولى أكثر شعبية فمحور المحتوى بصري بامتياز يختصر كل (Kambhampati, 2013) أنماط الحياة التي يتشاركها المراهق عبر الإنستغرام.

وعن الأبعاد الإجتماعية لإستخدامات شبكات التواصل الإجتماعي من قبل المراهقين خلص الباحث(العمري، 2018، صفحة 139) في نتائج دراسته إلى أن المراهق يتواصل مع الاصدقاء ويتابع ويناقش ما تعرضه مواقع التواصل الإجتماعي المدرسة13% و % 29.8و مع الأسرة ب 57% بتأثير بنسبة

وهذه النتائج تؤكد انغماس المراهقين في عالمهم بنظرائهم أكثر وانجذابهم عبر الفضاء الإفتراضي لإهتماماتهم وتوجهاتهم المشتركة ،غير ان ذلك يمكن أن يؤثر على نفسيتهم ويزيدهم اكتئابا حسب ما خلصت إليه نتائج دراسة أمريكية حديثة حول تأثير عدد من مواقع التواصل الإجتماعي على المراهق من بينها الإنستغرام، حيث كشف البحث الإستقصائي أن المراهقين يتفقدون ماينشره الآخرين أكثر من 100 مرة ما يمثل61% يتابعون فيها علامات الإعجاب والقلوب ليروا ماذا يفعل أصدقاؤهم بدونهم ،في حين35% التي نالتها منشوراتهم أنهم يريدون التأكد من عدم ذكرهم بسوء من قبل الآخرين ،وكانت أهم نتيجة لهذه الدراسة بنسبة 21% و أنهم كلما زادت فترة تواجد المراهقين على مواقع التواصل الإجتماعي زاد توتر أعصابهم وزادت مخاوفهم وتعاستهم.

وقد بينت أبحاث أخرى مشابهة في نفس الإطار إلى أن المراهقين يهتمون أكثر بالصور الشخصية ما أفرز لديهم انخفاضا في تقدير الذات خاصة لدى البنات رغم شهرتهم في وسط أقرانهم، فنموذج الذات المثالية يمكن أن يكون خطيرا للغاية يجعلهم يعانون من تأثير قاس لصور خيالية مستحيلة التحقق وهو ما يؤدي إلى الضغط الإجتماعي غير المسبوق.

في هذا الإطار يتحدث الصحفي البريطاني "ويل ستور" في رحلة أبحاثه العلمية عن "الذات " والتي ترجمها في كتابه "الصور الذاتية : كيف أصبحنا مهووسين بالذات وما تأثير ذلك فينا" فيقول أن الصور الشخصية ووسائل التواصل الإجتماعي هي الشكل النهائي للثقافة التي بدأت في العصر القبلي بدء بالفردانية اليونانية القديمة ومفهوم البطل والعصور الوسطى حيث الذات بنظرهم أقرب ما تكون إلى الأسطورة وصولا إلى فكرة احترام الذات التي بدأت كتيار ثقافي في ثمانينات القرن الماضي حتى صعود النرجسية وجيل الصور الذاتية "سيلفي"، غير أنه يؤكد أن البحث عن نموذج مثالي في الصور الذاتية من خلال السيلفي قد يؤدي إلى الإنتحار بسبب استحالة "الكمالية الإجتماعية" وهذا الأحير بحسب ويل ستور أدق من الكمال الذي يراه الآخر.

كل الأبحاث التي ركزت على دراسة السلوك الرقمي للمراهقين على الشبكات الإجتماعية على اختلافها وعلى الإنستغرام تحديدا بينت أن محور الإستخدام لديهم يرتكز على اكتشاف الذات والتسويق لها وهي إحدى الاساسيات التي ينبني عليها الإنستغرام في خصوصيته الرقمية، من خلال مايوفره لهم من الحريات التي تسمح لهم باستكشاف الإهتمامات وإخفاء الهوية والخصوصية بالإضافة إلى الترويج الذاتي، ومن ثم فرصة لتعزيز الذات وخلق كيان مستقل في المجتمع للتعبير عن الذات .

ورغم محاولات التخفي وراء أسماء مستعارة وشخصيات مجهولة الملامح إلا أن تمظهرات الهوية الرقمية قد تنعكس في بعض المضامين التي تتشكل كنسخة عما هو موجود في الواقع وهنا "تتخذ لغة التواصل في المجتمع الإفتراضي طابعاً مميزاً يجمع بين الكلمة والرمز، الايقونة، الوجوه، الصورة وغيرها، التي قد يجري التلاعب برمزيتها وبناء معانيها سعياً إلى خلق خصوصية الأثر الرقمي في ضوء ديناميكية الجماعات الافتراضية وتالياً بلورة الوجود في المجتمع الشبكي" (بيميون، 2016، صفحة 73)

وحول أطروحة "المجتمع الشبكي "دارت مقاربات السوسيولوجي الأمريكي من أصل اسباني مانويل كاستلز في مثلث مجلداته إلى أن "ثمة نزعة تاريخية تنتظر بمقتضاها الوظائف والعمليات الأساسية حول الشبكات على نحو تكون الشبكات قائمة على تضاد متزايد" (بارني، 2015، صفحة 10)

وعلى هذا الأساس الثنائي القطب بين الشبكة والذات وتكون هذه الشبكات الوجه الإجتماعي لمجتمعنا ذلك أن عصر المعلومات حسبه محكوم. وموجه بقطبين مركزيين، قطب الشبكة وقطب الذات الفاعلة، وهي "من الإشكالات التي عمل عليها كاستلز لتأسيس رؤية مغايرة لأنماط المجتمعات المعاصرة بناء على مقاربات نظرية دامت سنوات في دراسته لتمظهرات الحياة الرقمية (الغزواني، 2020،صفحة 151)

وهنا ينعكس الوجود الإفتراضي أكثر في الهوية الرقمية التي يتفاعل بها المستخدم على الشبكة من خلال تمثلاتها التي تعكس تصوراتها وقيمها لاثبات وجودها الإجتماعي والرقمي على حد سواء، هذه الهوية التي تضاربت الآراء حول ما إذا كانت تعكس مضامين واقعية أو تبحث لها عن وجود في ممارسات الفضاء الإفتراضي .وهنا يرى علي رحومة أنه "ليس شرطا أن يكونوا كما هم في واقع الأمر، لكن هذا لا ينفي أن كثيرا منهم يحاول أن يكون به صادقا افتراضيا، ولكن الأمر المشترك في معظم المتمثلين هو تمثلهم ذلك بما يريدون من الآخرين أن يروهم به" (رحومة، 2008)

فالهوية الرقمية هي "مجموع الصفات والدلالات والرموز التي يوظفها الانسان للتعريف بنفسه في الفضاء بحيث قد لا يتوافق مضمونها مع هويته الحقيقية في الواقع الإجتماعي الإفتراضي فيتفاعل ويتواصل على أساسها مع الآخرين. ودلالة كلمة الهوية لا تكتسب معناها الا في سياق علائقي في نطاق علاقات التماثل والاختلاف والإقتران والتمايز بين الجماعة والفرد، وحول هذا تركزت اجتهادات بول ريكور الذي حاول أن يمنح تصورا جديدا لمفهوم الهوية ولمفهوم الزمن ،فالهوية بمنظوره هي استراتيجية تغييرية تتجاوز المسائلات الميتافيزيقية لتتجه صوب الصور والنماذج التي تتمثل من خلالها الذات وتشكل مجموعة تمثلاتها داخل العالم ويتحدد وفق هذا التصور علاقة الانسان بنفسه وعلاقته بالعالم الآخر . (ريكور، 2005)

إلى ذلك توصلت الباحثة الفرنسية فاني جورج إلى أن ما تعرضه الذات على الفضاء الإفتراضي هو جزء من الهوية الرقمية التي تعرض في المجتمع الإفتراضي، وتؤكد أيضا أن الهوية النشطة هي العنصر الأساس في تركيبة الهوية الإفتراضية على شبكات التواصل الإجتماعي بحيث يعبر عنها المستخدم بحضوره المستمر وتفاعلاته الفورية في استعراض ذاته.

وفق هذا المنطق يرى عالم النفس البولندي هنري كاجفل أن المفهوم الشخص لذاته ينبثق من انتماءه للمجموعات إذ ليس للإنسان هوية واحدة بل هويات متعددة بتعدد المجموعات التي ينتمي إليها ويتصرف في كل مجموعة بناء على ما تتطلبه ،وهو المفهوم الذي ينطبق تماما على الهوية المبحرة على شبكات التواصل الإجتماعي أو ما يعرف بالهوية الإفتراضية.

تعد شبكات التواصل الاجتماعي ملاذ المراهقين في العالم الافتراضي وسط التنوع الذي تتميز به كل شبكة وهي المجالات التي توفر من خلال تقنياتها المتطورة في استخدام الصور والرموز والتعابير الرمزية واللغوية وتساعد على بناء الصور الذهنية وتنميتها في بناء المعاني وتسويقها بين المستخدمين في الفضاء الافتراضي ،وللأنترنيت الفضل في خلق هذا العالم الذي يعيشه المراهق بكل

حيثياته افتراضيا ،حيث يرى بعض الباحثين الإجتماعيين أن الشباب عموما يعيشون في عوالم ثانية عوضا عن عوالمهم الحقيقية أطلقوا عليها عوالم ما بعد الواقع أو العوالم الإفتراضية المتخيلة أنها عوالم تقوم على التصور والتخيل وينشئون علاقات افتراضية يعبرون بكل حرية عن ما بداخلهم ويمكن ارسال صور واستقبالها وتوزيعها والتحكم فيها وتزييفها وتركيبها وتبدوا فيها الأشياء كما لو أنها حقيقية(المنصور، 2012، صفحة 22)

وبشيء من الإيجابية يرى دون تابسكوت في كتابه "كيف يغير جيل الانترنيت عالمنا؟" أن "نضج هذا الجيل ونشأتهم الرقمية له تأثير بالغ على طريقة تفكيرهم حتى إنها غيرت فيسيولوجية أمخاخهم، ومع ان هذا الطوفان الرقمي يفرض تحديات خطيرة على جيل الشباب مثل التعامل مع كميات هائلة من المعلومات الواردة أو ضمان تحقيق التوازن بين العالمين المادي والرقمي، فإن استغراقهم في هذا الطوفان لم يضرهم في شيء لقد ثبت انه امر ايجابي فهذا الجيل أكثر تقبلا للتنوع العرقي وأذكى وأسرع من الأجيال السابقة (عبيد، 2012)

ويشير عالم الإجتماع انطوني جيدنز إلى التطور السريع الذي تشهده تكنولوجيات الإتصال الحديثة بوصف مطابق سماه "العالم الشارد" ذلك ان الشباب مع تنوع شبكات التواصل الإجتماعي وماتقدمه في عالمهم الإفتراضي جعلتهم ينغمسون في متاهاته وأبعدتهم لزمن عن عالمهم الحقيقي.

فزيادة استعمال الهاتف الذكي بكل التطبيقات التي تتنافس كبرى الشركات العالمية لإدراجها زادت من استقلالية المراهق واكتفاءه وفي انعزاله أيضا عن الواقع الاجتماعي وقلت قدرته على التواصل الفعلي وفي هذا يشير الباحثان ناي واربينج في دراستهما أن فئة المراهقين الاكثر استخداما للأنترنيت والاكثر ارتباطا بتطورات تكنولوجيا المعلومات والتي أثرت بشكل كبير على عملية التفاعل الفردي والجماعي داخل المحيط الأسري و المحيط الإجتماعي الاكبر (valkenburg, 2009)

المراهق والعالم الإفتراضي"انسحاب" أم "اعتزال "أم "انكفاء شبكي"؟

من مفارقات المجتمعات الإفتراضية و رغم انفتاحها على العالم والتواصل اللامحدود مع الآخرين الا أنها تفضي إلى العزلة والإنفراد، وهي الحقائق التي تغيب عن المستخدمين لدى ولوجهم العالم الإفتراضي الذي في ظاهره اختزل المسافات ليدخلهم في عزلة جديدة عن عالمهم الواقعي وهو ما فصل فيه الباحث شيري تيركل بعنوان "نحن معا لكننا وحيدان :"لماذا أصبحنا ننتظر من التكنولوجيا أكثر مما ينتظر بعضنا من بعض؟ في كتاب

Alone: Why we Expect More from Technologies than from Each Other " Together

فالمجتمعات الإفتراضية اختزلت علاوة على المسافات، المشاعر الإنسانية الحية التي تحولت إلى مجرد تفاعل إلكتروني مدعم بصور ورموز وتعليقات وهذا ما أسماه دومينيك وولتن ب "العزلة التفاعلية" أو "الوحدة التفاعلية"

حيث يرى أن الفرد يكون مستعملا ممتازا للأنترنيت لكن لديه أكبر الصعوبات في أن يدخل في حوار مع من بجانبه .
مع تزايد نمو شبكات التواصل الإجتماعي والنقلة النوعية التي عرفها الفضاء الرقمي بالتطبيقات المستحدثة في إطار التنافس أضحت هذه الشبكات متهمة بابعاد المستخدم أيا كان سنه عن عالمه الواقعي على كافة المستويات ولايستثنى المراهق من هذه الوضعية التي أثارت خوف الأولياء والعاملين في السلك التربوي لحساسية المرحلة العمرية من أن تكون هذه الفضاءات الإفتراضية قد أسرت المراهقين وعزلتهم عن العالم الواقعي الإجتماعي بامتيازاتها ، وندعم هذا الرأي بنتائج دراسة مسحية قامت بها جامعة ستانفورد الأمريكية إلى أنه كلما زاد ساعات استخدام الانترنيت عن المتوسط قل الوقت الذي يقضيه مع أناس حقيقيين وتكوين علاقات مباشرة معه ،مما قد يؤدي إلى حدوث موجة كبيرة من العزلة الإجتماعية.

وفي معجم علم النفس العديد من المصطلحات التي تتوافق وهذا المعنى أبرزها "الإنسحاب الإجتماعي " ومعناها في القاموس "الإبتعاد عن مجرى الحياة الإجتماعية العادية ويصحب ذلك عدم التعاون وعدم الشعور بالمسؤولية وأحيانا الهروب بدرجة ما من الواقع. فالمراهق الذي يقضي قدرا هائلا من الوقت في تصفية وتحرير صوره الذاتية قبل نشرها مع اختلاف الواقع عن الصورة ذلك يمكن أن يؤدي إلى عواقب مأساوية بسبب الضغط الذي يمارسه عن نفسه ليكون سعيدا ولو للحظة ليرسلها للجميع، هذا ما يجعله أسير السعادة الشخصية التي يضغط على نفسه من أجل الظفر بهذا الشعور، والحقيقة حسب تحاليل القائمين على تفسير سلوك المستخدمين لشبكات التواصل الإجتماعي يؤكدون أنه كلما زاد التردد على مواقع التواصل الإجتماعي زاد الميل للشعور بالإكتئاب والعزلة "والإغتراب الإجتماعي".
وعلى نحو آخر هناك من يفسر انعزال المراهق اجتماعيا أو انسحابه أو "انكفاءه الشبكي" لا يعني استقلاليته عن العالم وإنما هو تجاوز مرحلة الوجود الفعلي إلى مرحلة الوجود الإفتراضي بمعنى أن زيادة التفاعلية على مواقع التواصل الإجتماعي جعلته يتعلق بالعلاقات التي ينشئها عبر الفضاء الإفتراضي أكثر من الأشخاص الواقعيين.

فالإفتراضي هو عملية التحول من نمط وجود إلى نمط وجود آخر يقول بيير ليفي في كتابه ""عالمنا الإفتراضي ماهو ؟ وماعلاقته بالواقع؟ ويرى أن الإفتراضي لا يمت بصلة ضعيفة إلى الزائف أو الوهمي أو الخيالي، فالإفتراضي ليس ضد الواقعي أبدا إنه على النقيض من ذلك نمط وجود خصب وقوي يغني عمليات الإبداع ويفتح آفاق المستقبل ويحتفر آبار من المعاني تحت سطحية الوجود الفيزيائي الآني ف "الإفتراضي يملك واقعا كاملا بصفته افتراضيا" (ليفي، 2018)

في هذه السياقات،يقول الباحث صادق رابح "يمكن اعتبار الأنترنيت كمخدر عازل للفرد عن محيطه الطبيعي، إن التراكم المعرفي المتعلق بظاهرة ادمان المخدرات يشير إلى أن بيولوجيا الجهاز العصبي ،والدراسات الإجتماعية حول استخدام المخدرات أو علم النفس العيادي وصلت إلى نفس المعاينة: "فطبيعة العلاقة هي التي تخلق المخدر دائما، أي البحث عن تغيير شخصية الفرد التي تتيح له أن يكون أفضل من مما هو عليه ،وأكثر من ذاته وبكل الأحوال أن يكون ذاته لكن بتمظهر آخر " (صادق، 2013، صفحة 135)

وقد تكون أيضا "الذوات الإفتراضية التي يتقمصونها تبتعد بهم عن ذواتهم الحقيقية الفعلية وتدفعهم إلى عوالم إشباعية وتسكينية يرتادونها باستمرا ر حيث تمنح للفرد ولو لبعض الوقت أن يكون مايريد مع علمه بأنها ليست كينونته"

(صادق، 2013، صفحة 135)

على نحو آخر يرى ميشال فوكو أن شبكات التواصل الإجتماعي تخلق نوعا ماسخا أو مايعرف ب"بانبوتيكون" وهو سجن افتراضي يؤثر على نفسية المستخدمين وأن وعي المستخدم بأنه مراقب يقوده إلى محاولة ارضاء الحشد الافتراضي وكسب اعجابه من خلال اختياره المدروس لما يعرضه من المستخدم ويقوده إلى منشورات وفق مقتضيات المجتمع الإفتراضي الذي ينتمي إليه إعادة تشكيل هويته بطريقة ابداعية(السنوسي، 2019)

وقد أشارت الدراسات التي بحثت في الوجود الإفتراضي للمراهق عبر شبكات التواصل الإجتماعي إلى عادات استخدام "الجيل الرقمي" للشبكة وطبيعة العلاقات الافتراضية التي تتكون بينهم، ورصدت في مجملها أنَّ هذا الجيل يُشاهد أكثر مما يقرأ، ولديه القدرة على الابتكار والابداع في مختلف المجالات بسبب كمية المعلومات المتاحة التي يستطيع الوصول إليها بسهولة نظرا للمحفزات الإلكترونية، فضلًا عن قدرتهم على القيام بأكثر من مهمة في وقت واحد، والتميز بقدرات بصرية مذهلة في التعامل مع الألوان والقراءة على خلفيات ملونة، وكذا سرعتهم في الرد والتواصل والتعبير والتعامل مع مختلف أنواع الوسائط المتعددة.

الإفتراضي ..ذاكرة لم تتشكل بعد في مخيال المراهق

الممارسات الرقمية التي أدمن عليها "جيل الانترنيت" تحيلنا إلى الفهم بأن انخراط الأعداد الهائلة من المراهقين في شبكة الأنترنيت له ما يبرره في الوجود الإفتراضي في ظل ذاكرة لم تتشكل بعد لهم، فالتفاعل السريع والمستمر على الإنستغرام ينسيهم حلقات التواصل السابقة، بمعنى حتى ذاكرتهم تصبح لحظية تنتهي بمجرد الوجود الإفتراضي وهذا ما شجع صانعي ثقافة هذه الوسائل تستغل فئة الشباب والمراهقين خاصة لنشر فكرها وإيديولوجيتها وسلوكاتها وحتى الإعلام ساهم في تقديم نموذجا متجانسا لمنتجات ثقافية ورمزية تخدم هذه الإتجاهات في الوقت الذي تغيرت فيه أدوار مؤسسات التنشئة الإجتماعية الأسرة و المدرسة و المسجد ولم تعد المصادر الأساسية الوحيدة لإنتاج المعرفة والقيم، وإذا فقدنا الرابط بين الماضي والحاضر والمستقبل فقدت الذاكرة ويصبح الفرد منفصلا عن سياقه.

ومنه "يمكن تفسير أن الطفل الذي ينشأ في حضن البيئة الإلكترونية ووسط طوفان من المعلومات الرقمية من غير زاد في الذاكرة وفي ظل غياب دور الأبوين يهدد الذاكرة الفردية والذاكرة الجمعية للأفراد بالخلل". فكما يقول البروفيسور بورلين "إن أخطر ما يصيب الذاكرة ليس التشويه أو التشويش وإنما ما لا يستثمرها ويملؤها بما هو سطحي واستهلاكي"

(احمين، 2018، صفحة 11)

خاتمة:

قد تكون التخمينات القائلة بأن المجتمعات الإفتراضية لا يمكن أن تكون بديلا عن المجتمعات الحقيقية ولا تسمح بتشكيل هوية قوية لأنها بالنهاية نتاج تفاعلاتهم الآلية، غير أن ذلك قد لا يتناسب وواقع المراهقين بالنظر لممارساتهم الرقمية وذوباتهم في عالمهم الإفتراضي بشكل فاق الإدمان ، لأن العلاقة الحميمية التي تولدت لدى المراهق مع أجهزته المحمولة للتواصل عبر الفضاءات الرقمية ،أصبحت بفعل الممارسة ملاذا ترفيهيا واجتماعيا ونفسيا يكاد لا يفارقه الا في استثناءات قليلة ،كأن الفضاء الإفتراضي جاء ليعوض احتياجاته المفقودة في واقعه ويعطيه مساحة أكبر للتعبير عن ذاته واكتشافها في عين الآخر عير شبكات التواصل الإجتماعي.

إن الواقع الإجتماعي في نظر المراهق من خلال ممارساته الرقمية تنطلق من رؤية ذاتية لتجسيد ما يحوم بعالمه الخاص ،يحاول أن ينفرد بالفضاء الذي ينقله من عالمه الحقيقي إلى الإفتراضي إما هروبا أو أنعزالا أو ملاذا نفسيا وترفيهيا ،ومن ثم شكل التفاعلات التي يعكسها على واجهته الإفتراضية إنما تعكس واقع اهتماماته الشخصية بالدرجة الأولى وفق ما تمليه متطلبات الذات في مرحلة المراهقة ،وهي المرحلة التي يعتبر إريكسون من أوائل الذين تحدثوا عنها من منطلق الإحساس بالهوية أو "الكينونة"، حيث يرى المراهق نفسه مستقلا عن الآخرين له ميوله وقيمه واهتماماته وأدواره في الحياة واختياراته التي قد تتفق أو تختلف مع الآخرين ولها قدر نسبي من الثبات والإستقرار .

من جانب آخر فإن عدم جاهزية المراهق لأن يكون فاعلا في واقعه الإجتماعي ومتفاعلا فيه، تؤكد فرضية أن ذاكرته لم تنضج بعد لتجعله واعيا بالدور الذي يجب عليه، وهنا فإن خصوصية مواقع التواصل الإجتماعي عموما والإنستغرام بشكل خاص تضفي المزيد من المغريات لأن يكون المراهق أكثر نرجسية في رؤيته لذاته أولا وأكثر استقلالية عن حدود الفضاء الواقعي.

من هذا المنطلق كان لزاما علينا التنبيه أكثر بواقع الحياة الإجتماعية في فضاء الوجود الإفتراضي للمراهقين من خلال تفاعلاتهم عبر الشبكات الإجتماعية وبالأخص الأنستغرام الذي ينمو ويتطور بالجزائر على خطى الشبكات الرائدة في الفضاء الإفتراضي ،وبقدر ما خلق الإنستغرام مرآة للمراهقين يشكلون من خلاله تصوراتهم الذهنية عن ذواتهم وتقدير الآخرين لهم فإن الإنغماس في العالم الإفتراضي قد يفقدهم احساسهم بوعيهم الحقيقي لذواتهم وحياتهم الإجتماعية بل وانسانيتهم أيضا ،ولا خلاف في أن يكون الواقع الإفتراضي وكذا الحقيقي في حالة "التقاء" تمكن المراهق من العيش ضمن هذا الشعور شرط أن يكون "الوعي" سيد الذات في كل أنماط سلوكها.

المراجع:

1- م.م/ي.أ ، **لماذا يعشق المراهقون "يوتيوب" و"إنستغرام" و"سناب شات"؟**https://p.dw.com/p/36m9H

نشر 19/10/2018 شوهد23 09 2020

2-مات أليغرين، **إحصائيات وحقائق ل2020 INSTAGRAM +40**،https://www.websitehostingrating.com

تحديث في 19نوفمبر2020شوهد في نوفمبر2020

3- Lydia Manikonda et autres, What we instagram ? A First Analysis of Instagram Photo Content and User Types 2013

4- عبد الرحمن العمري ،الأبعاد الإجتماعية لإستخدامات المراهقين لشبكات التواصل الإجتماعي،مجلة جامعة الملك عبد العزيز للآداب والعلوم الإنسانية، ص 139، السنة2018

5-كلثوم بيميمون، السياقات الثقافية الموجهة للهوية الرقمية من التداول الإفتراضي إلى الممارسة الواقعية، مجلة إضافات، العددان34- 33، ص 73، 2016

6- دارن بارني، المجتمع الشبكي ترجمة أنور الجمعاوي ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،بيروت ط 1، فيفري2015 ، ص10

7– ادريس الغزواني ،مانويل كاستلز ومفهوم مجتمع الشبكات من المجتمع إلى الشبكة نحو مقاربة تأويلية للهوية والسلطة في عصر المعلومات ،مجلة العمران العدد 33 صيف ،ص2020،151

8 - رحومة علي محمد، علم الاجتماع الآلي: مقاربة في علم الاجتماع العربي والاتصال عبر الحاسوب، عالم المعرفة. العدد 347 ، يناير 2008

9 --بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، 2005

10 - محمد المنصور، تأثير شبكات التواصل الإجتماعي على جمهور المتلقين دراسة مقارنة للمواقع الإجتماعية والمواقع الإلكترونية العربية أنموذجا ،مجلس كلية الآداب والتربية والإتصال ،الأكاديمية العربية الدانمارك ص22، 2012

11 - علي نايف عبيد، القرية الكونية :واقع أم خيال العرب وثورة المعلومات، سلسلة كتب المستقبل مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2012

12- Valkenburg patti and peter jocher, social conseconces of the internet for adolescent Association for Psychological Science, february , Number 1, Volume 18,2009

13- بيير ليفي، عالمنا الإفتراضي ما هو وما علاقته بالواقع؟، ترجمة رياض كحال، هيئة البحرين للثقافة

والآثار، المنامة ط1، 2018

14- صادق رابح، فضاءات رقمية قراءة في المفاهيم والمقاربات واالرهانات، دار النهضة العربية، لبنان ، 2013ص 135

15- صادق رابح ،مرجع سابق ص 135

16 - كوثر السنوسي مواقع التواصل الإجتماعي وواقع البناء الذاتي للهوية ،مجلة علوم الإعلام والإتصال ،العدد 3،2019

17-عبد الحكيم احمين، مراجعة محمد شمدين ،الهويات الإفتراضية في المجتمعات العربية، دار الأمان، المغرب، 2018